مدينة (تيواون) في السنغال معقل لنشر الإسلام والثقافة العربية

عبد العزيز صار
طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

أصل تسمية مدينة تيواون

ترجع الروايات الشفوية أصل تسمية مدينة تيواون إلى نبوءة متداولة في التراث المحلي مفادها أنه هذه الأرض، التي لم تكن مأهولة في السابق، سيكتب لها مستقبلا مشرقان وستغدو موطنا مباركا يحمل في طيّاته ذكرى رجل رباني عظيم، منحدر من أصول فلانية(التكرور)، وتشير النبوءة إلى أن هذا الرجل سينزل ضيفا على أهل المنطقة، وسيقابل بحفاوة، وكرم من ساكنيها.

ومع تعاقب الزمن، تحققت تلك النبوءات بقدوم الشيخ الحاج مالك سه بن عثمان، رضي الله عنهما، اذي كان حضوره إلى هذه الأرض بمثابة نقطة تحوّل تاريخية. فقد أضفى الشيخ على هذه الإشارات الروحية دلالات تبعث الأمل وتبشر بالخير للأجيال القادمة، وكانت المنطقة آنذاك مأهولة بجماعات من طبقة تِيدُو المعروفة بانغماسها في الترف والملذات، وكان من بينهم من يعتنق معتقدات وثنية تناهض الإسلام.

غير أن استقرار الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه في هذه الأرض غيّر ملامحها الروحية، والثقافية، والاجتماعية، إذ حوّلها إلى مدينة للعلم والتزكية، ومركز لإشعاع التوحيد ونور الإسلام. أصبحت تيواون بعد ذلك واحة للسلوك القويم، وانتشرت منها القيم الإسلامية إلى أرجاء شتى.

وفي العصر الحديث، تُعد تيواون من أبرز المدارس التعليمية والتربوية في العالم الإسلامي، كما تُعتبر من أقدس المحاريب التي يؤمها المؤمنون من مختلف الأقطار، خاصة خلال موسم المولد النبوي الشريف، حيث تُقام الاحتفالات تخليداً لسيرة خير البرية، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، باعتباره النموذج الأكمل والقدوة الأسمى للإنسانية جمعاء[1].

[1]- AtoumaneNdiayeDoumbia, (Tivaouane en image: L'histoire de la ville dépuis1886),Maguilien,2011.

تأسيس زاوية مدينة (تيواون)

الزوايا الثلاثة للشيخ الحاج مالك سي ومنجزاتها الثقافية العربية الإسلامية. تُعد الزاوية التي أنشأها الشيخ الحاج مالك سي بمدينة تيواون أولى معالم مشروعه الروحي والثقافي في السنغال، وقد أصبحت مع مرور الزمن مركزًا إشعاعيًا للثقافة العربية الإسلامية. تليها زاويتان أخريان أسسهما الشيخ بنفسه؛ واحدة في دكار العاصمة، وأخرى ثالثة في مدينة سانت لويس السنغالية.

هذه الزوايا لم تكن مجرد أماكن للعبادة والذكر، بل مثلت مراكز تعليمية وتربوية وثقافية ساهمت بشكل فاعل في ترسيخ الهوية الإسلامية وتعليم اللغة العربية، ونشر معاني التصوف السني السمح، وإرساء القيم الروحية السامية في المجتمع السنغالي. ويُعد هذا المشروع امتدادًا لرؤية روحية وتربوية عميقة استلهمها الشيخ الحاج مالك سي من سلفه المجاهد الكبير الحاج عمر الفوتي تال، رضي الله عنه.

ولد الحاج عمر الفوتي في قرية هلوار(Halwar) منطقة فوتا توروشمال السنغالسنة 1797م. وقد حمل همَّ الدعوة إلى إقامة دولة إسلامية موحدة في غرب إفريقيا، تُعلي من شأن الدين وتحفظ المصالح الإسلامية والوطنية في وجه الاستعمار والوثنية. أطلق مشروعه الجهادي سنة 1852م.

ويُحسب للحاج الفوتي تال عمر كما يُروى عن الدكتور عامر صمب – أنه كان أول من حجّ إلى بيت الله الحرام من بين العلماء السنغاليين، كما يُعد أول من نظم الشعر العربي في السنغال، وهو ما يعكس عمق تواصله الثقافي والديني مع المشرق الإسلامي، وحرصه على نشر علوم الشريعة واللغة العربية في بيئة كانت آنذاك تحت ضغط الاستعمار ومحاولات طمس الهوية الإسلامية[1]. فإن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه الذي ولد في قرية غايا Gayah بالقرب من مدينة داغنا Dagana(1922/1853م) فهو الآخر أول من أقام زاوية بمدينة تيواون، وأول من أدخل فيها الشعر العربي في رأي الباحث.

قدم الحاج مالك سي إلى تيواونعام 1900م، وقيل في رواية أخرىعام 1897م حيث بنى فيها زاويته سنة1902م، فالزاوية كانت ساعتئذ، تتألف من أربعة غرف حسب الرأي

[1]–الدكتور عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م

الذي أدلاه بول مارتي، وفوروصول الحاج مالك سي إلى تيواون أنشأ أول مسجد في المدينة، وبدأ ينشر الطريقة التجانية، ويفتح مدارس لتعليم القرآن الكريم، تعرف محليا باسم (دارا)، وتسمى عند المغاربةوالموريتانيين بتسمية المحظرة أو الكتاب.

و يرتبط تاريخ هذه المدينة بكونها مرجعية إسلامية ومدرسة رائدة في التربية الصوفية مع قدوم الشيخ إليها سنة 1900م الميلادي وقيل أنه قدم إليهاقبل هذا التاريخ بثلاث سنوات، وهو سنة 1897م، وعندما حطّ فيها الشيخ الحاج مالك سي رحاله قادما من شمال السنغال مارّا في طريقه بمدينة كيل Kél متجها نحو قرية انجارديNdiarndé، وهذه الأخيرة على بعد مسافة 60 كيلومترا من تيواون، وفي قرية انجادي أقام الشيخ مدّة سبع سنوات مع مجموعة صفوة من التلاميذ ومن كبار مقدّميه رضوان الله عليهم، وهناك في انجاردي ربّاهم الشيخ ودرّسهم وأعدهم إعدادا خاصا ودقيقا وذكيّا ليكونوا لاحقا ومستقبلا على مستوى من المسؤولية،والبصيرة، والبينة بأمر الدينوواعين بواقع العصر لمواجهة نشاط الاستعمار والوثنيين، وذلك عن طريق تعليم القرآن الكريم،وبث التربية والثقافة العربية الإسلامية.

مدينة(تيواون) جامعة شعبية:

ولما وصل إلى تيواون اتخذها معقلا لنشر الإسلام والطريقة التجانية، وخلال حقبة قصيرة من الزمن دانت له الدنيا والتف حوله الناس لحضور مجالسه العلمية، كما شهد على ذلك بول مارتي PaulMartyالكاتب الفرنسي في بحثه عن الإسلام في السنغال عند قوله: إن الخاصية المميزة لزاوية الحاج مالك بتيواون هي أنها تشكل جامعة شعبية حقيقية، فهي تُكوّن عددا ضخما من الأساتذة والمعلمين لعلوم الشريعة الإسلامية ثم ينتشرون عبر البلاد ويكونون بدورهم كوكبة من الأساتذة يساهمون على نشر مبادئ التعاليم الإسلامية

من خلال هذا الرأي يتضح لنا أن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه بنى صرحا شامخا معرفيا وعلميا وأدبيا وأخلاقيا ومنارة تنبعث منها الإشعاعات الروحية والثقافة الإسلامية إلى أرجاء القارة السمراء. وإلى هذه المدرسة الشهيرة، يشير الشيخ سعد بن أبيه الشاعر الموريتاني مادحا الشيخ الحاج مالك سه، ومنوها بمكانة وسمو وشهرة

زاويته ومدرسته أو جامعته الشعبية ودورها الريادي في استقبال طلبة العلم وتكريمهم وتربيتهم تربية إسلامية[1] صحيحة وسليمة فقال:

على فائق الأقران مالك دهره يعود سلام طاب ليس له حدّ
تطيب به الأفراح إن فاح نشره وفي طيه من عندنا الودّ العهد
فموجبه إنا جعلنا يقوم به عنا لك الصمد الفرد
فإفضاله السامي عزيز منا له وإن سامه المخلوق يقصر به الجهد
مدارسه في العلم خير مدارس وأوراده في الذكر ما مثله ورد

مدينة تيواون ملتقى موسميا للمولد النبوي الشريف:

استطاع الشيخ بإشعاعه الروحي استقطاب أتباع كثر في المنطقة، وحول ورفع منزلة تيواونمن درجة عاصمة مملكة كَيُورْ إلى مرتبة عاصمة الطريقة التجانية في السنغال والمنا طق المجاورة ثم أطلق الشيخ في السنة التي نزل عليها احتفالية لتخليد ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم وتسمى كامو Gammou باللهجة الولوفية[2]. وقد كان مولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين8 أو9في شهر ربيع الأول. وأصبح موسما سنويا يحضره المسلمون، ويشاركون فيها سلالة الشيخ، من السنغال وخارجه وخاصة أتباعه من التجانيين، ويجري تخليد هذه الاحتفالية على امتداد البلاد، فإن كل منطقة أو قرية في البلاد تقيم احتفالها استجابة لدعوته وامتثالا لأمره وندائه العام والموجه للجميع بقوله:

ألا عظّموا ليل الولادة حسبة إذا لم يكن نحو الحرام عدول[3]

"فزاويته منذ عهد تأسيسها ارتبط اسمها بزاوية المثقفين، لقد كون أتباعه الذين تعلموا منه تكوينا ثقافيا وروحيا، كما وضع الشيخ تصانيف ومؤلفات وخصص جزء كبيرامنها للأمداح الدينية والتعليمية، التي أسهمت إسهاما ملحوظا في تقدم العلوم

---

[1]– (بول مارتيPaul Marty) بحث عن الإسلام في السنغال، هو من أبرز مؤرخي الإدارة الفرنسية الاستعمارية، وأحد كبار الضباط والإداريينالاستعماريين، ومن كبار المستشرقين الفرنسيين الملمين باللغة العربية، وكان متخصصا ومهتما بإسلام إفريقيا جنوب الصحراء، المرجع: موقع (غوغل)2013/13م تاريخ الزيارة25/ديسمبر2020م، الساعة الثانية عشر ليلا، ترجمة الباحث

[2]– شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانييناالتواونيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية، ص91

[3]– الحاج مالك سه، الديوان، المحمديات، زاوية تيواون، ج3، ص48

الدينية، واللغة العربية وآدابها إلى الأمـــام ورفـــع معـــاني الطريقـــة التجانيـــة فـــي الـــبلاد"[1]. ويحظى كتابه (خلاص الذهب في ســـيرة خيـــر العـــرب) أكبرتقـــدير وإقبـــال، ويبلـــغ عـــدد أبياته ألفا وستين بيتا. ويقول العلامـــة محمـــد الســـعيد بـــا فـــي مؤلفـــه:(نيـــل الأرب مـــن خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب)"وقـــد ألفـــه الشـــيخ الحـــاج مالـــك سه رضي الله عنه في فترة واحد وعشرين21 يومـــا، ولاغـــرو لأن الإمـــام الســـيوطي ألـــف ألفيته في علم الحديث خلال خمسة أيام فقال:

نظمتـــــه فـــــي خمســـــة الأيـــــام بقـــــدرة المهـــــيمن العـــــلاّم[2]

وكان الشيخ يحضر إلى المسجد لأداءالشعائر الدينيـــة، وللـــوعظ، وتـــلاوة القـــرآن. ويتـــرأس أنشطة العبادات في الصباح والمساء. ولما نزل الشيخ علـــى تربـــة تيـــواون واتخـــذها ســـكنا أصبحت المدينة تعد أكبر مراكز التأثير الصوفي والثقافـــة الإســـلامية بالســـنغال، باعتبارهـــا مقرّا رئيسيا للطريقة التجانية في منطقة غرب إفريقيـــا، وتحتضـــن ســـنويا احتفاليـــة كبيـــرة بمناسبة المولد النبوي الشريف وقدغير وعدل الشيخ سـلوك جـل سـكانها بعـد أن كانـت اهتماماتهم تتجه إلى لملذات والحظوظ النفسية، والنـــزوع إلـــى اللهووالميـــل وحـــبّ الراحـــة و الدعـــة والطـــرب، والغناء،متـــأثرين، بطبـــائع و عـــادات وتقاليـــد موروثـــة مـــن طبقـــة (تيدوThiéddo) التقليديين حلفاء الاســـتعمار،،وعليه يبـــدو فـــي الأمـــر بـــأن أهـــل تيـــواون أصيبوا بدهشة وإعجاب من هـــذا التغييروالتحـــوّل الجـــذري الســـريع الـــذي أحدثـــه الشـــيخ بمدينة تيواون، فيقول الدكتور عثمان جا فـــي رســـالته (لـــم يخطـــر ببـــال أحـــد مـــن أهـــل تيواون الذين ألفوا الطرب واللهو والتفنن في القول أن بقعـــتهم هـــذه ســـتغدو فـــي يـــوم مـــن الأيام منار من منارات الإسلام فـــي بـــلاد كَجُـــورْ وقبلـــة يؤمّهاالتجـــانيون وهـــواة الثقافـــة الإسلامية في كل وقت،وذلك لما رحبوا بالشيخ الحاج مالـــك ســـي ليقطنهـــا ويســـتقر فيهـــا داعية اسلاميا)[3].

حضور المعالم الإسلامية في المظهر العام بمدينة تيواون:

وأثناء مدّة يسيرة من الزمن وتطور الحياة بمدينـــة تيـــواون التـــي أخـــذت منحـــى وتوجهـــا جديدا ونزعة الروحية تمكن الشيخ أن يحول المدينة إلـــى معـــالم وحضـــور دينـــي وصـــوفي

---

[1]– سيدي أحمد سه الأمين مقابلة صحفيةالموقعwww.alaraby.co.uk

[2]–با محمد السعيد، نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خـــلاص الـــذهب فـــي ســـيرة خيـــر العـــرب، ج1، طبعة ثالثة، مركز النجاشي العلمي، بفاس قناس، السنغال،2012م، ص18

[3]جا عثمان، المرجع السابق، ص 179

يلحظ زائر المدينة وجودا واسعا وكثيرا لأسماء (مشائخ الطريقة على أهم منشآت المدينة ومرافقها الصحية والتعليمية، والتاريخية والثقافية والرياضية)[1]. وحتى جل أحياء السكن في تيواون تطلق عليها أسماءالشيوخ والخلفاء من سلالة الشيخ نفسه، أو اسم مؤسس الطريقة التجانية الشيخ أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه. أو أسماء المدن الإسلامية التي كانت لها ازدهاروشهيرة في نشر الإسلام والعلم، أوأسماء تدل على أماكن الشعائر ذات الأبعاد الروحية. وهذه من نماذج بعض الأحياء بمدينة تيواون: حي المدينة المنورة، وحي منى، وحي جدة، وحي عرفات، وحي المزدلفة، وخاصة من المدن المغربية الشريفة مثل: حي بليدة، وحي عين ماضي، وحي أبي سمغون، وبعد أن استقرّ الحال للشيخ الحاج مالك بشكل نهائي بمدينة تيواون مقره الدائم. ثم افتتح مدرسته التي كانت تمثل جامعة شعبية لتعليم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والفنون العربية[2]. ومن هذه الزاوية انطلقت شعلة التعليم والتربية والثقافة العربية الإسلامية لتشق طريقها إلى ربوع السنغال وحتى إلى خارجها، وما كان الشيخ الحاج مالك قادرا على النهوض بهذه المهمة.

الشاقة التي تعد من أصعب الأمورلدى كل من يسعى حاملا مشروعا دعويا للتغييرالعقدي والفكري والاجتماعيمتشمرا ومقبلا على الله، لو لم يكن الشيخ يتوفر في شخصه مجموعة من المواصفات القيادية كالكفاءات العلمية والقدرات الفردية النادرة، والرؤية السديدة، أوالبصيرة النافذة، والثبات على المبادئ والاعتصام بالقيم والمثل العليا، فلولا هذه السمات لكان من الصعب يحقق ويبلغ الشيخ إلى هذه الغاية الربانية النبيلة. ولكن كما يقال " إذا عرف السبب زال العجب". فإن ثقافة الشيخ الحاج مالك الرفيعة وتجاربه المتنوعة والغنية، وشهرة دراسته الموسوعية الفذة، وعلو كعبه في العلوم الشرعية، والفنون العربية، وكثر رحلاته وخبراته الثرة، وشخصيته المثالية، وعدم اهتمامه بزخارف الحياة الدنيا، فإن ذلك يوحي إلى مدى القوة والقدرة في التأثير الذي كان يتمتع به الشيخ الحاج مالك وأودع في شخصه القدوة رضي الله عنه.

وقد دون لنا بعض شعر هذه الزاوية جانبا من سماته ومواقفه الجريئة تجاه بعض الوقائع والأحداث ومكافحته ومحاربته باللسان والقلم بعض الانحرافاتوالتصرفات

---

[1] –سيدي أحمد سه، المرجع السابق

[2] – سيدي أحمد سه الأمين، مقابلة صحفية، www.alaraby.co.uk

الجائرة السائدة والمنتشرة كانت في المجتمع السنغالي، والتي يتطلب تغييرها امتلاك روح صلابة وعزيمة، وجرأة الليث، وقد سجل الشعر هذه الشيم الفاضلة، كما سنرى ذلك لاحقا، في انتاج الحاج منصور سهوخليفته الثاني حيث قال معبرا عن إعجابه بالشيخ الحاج مالك سه:

لله درك من شيخ يدل على مولاه قولا وفعلا يابنعثمانا
كالليث حلّ بأشبال على أجم فلا تقل لرماة حولها صيدوا[1]

ولما أقيمت الزاوية ورأت النور بدأت تعطي ثمارها يانعة من تخريج دفعات وأفواج وجماعات من العلماء، مهمتهمالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الصالحة، وكان من بينهم قراء، وأئمة، ومعلمون، ومربون، وأدباء، وغيرهم. فحملوا شعلة العلم والتربية الإسلامية، مقبلين على نشر الإسلام والطريقة التجانيةفي أرجاء البلاد، وخاصة في الأوساط والمناطق التي تمارس وتنتشر فيها الوثنية،ويستوطنها طبقة (تيدوThiéddo) الموالين للاستعمار والمروجين لمشروعه السيادي، وكان أسلوب الشيخ بعد أن أتم وأكمل المتعلمون التعليم والتكوين على يديه، أو يحرزون القدر والمستوى المرجو من العلم والتربية، أو يبلغون مرتبة العالم يمنحهم الشيخ إجازات في الفنون التي تلقوها، وفي الشريعة ،والطريقة، ثم يعينهم إلى المكان الذي يرى الشيخ أن لهم حاجة ملحة إلى من يعلمهم القرآن الكريم أو أمور دينهم، فهم عند الوصول إلى المنطقة المحددة يسيرون على سيرة ونهج الشيخ الحاج مالك معلمهم المربي،الذي كان يرى عدم وجود أهمية وجدوى في استخدام العنف وحمل السيف لقتال الاستعمار، لأن المرحلة لم تعد صالحة وملائمة للجهاد.

يقول الشيخ سيدي أحمد سه الأمين "والشيخ الحاج مالك سه كان يتعامل مع الاستعمار بسياسة السلم، لأنه كان زعيمامسالما، ولم ير فائدة في مواجهة الاستعمار، واختارأن يكون متفرغا لتربية الأتباع وتعليمهم"[2].

فوظف عمره المبارك بين التعلم والتعليم والتأليف والتربية والوعظ، والإرشاد والعمل في المزرعة والتجارة، فقد أنشأ مزارع وحقولا، لتكوين أتباعه وتدريبهم على ممارسة العمل وكسب اليد والاعتماد على النفس ليكون عيشهم هنيئا وبالهم رخيا. ويظهر هنا

---

[1]– الحاج محمد المنصور سه، ديوان مخطوط، في زاويةتيواون، السنغال

[2]– مقابلة صحفية، سيدي أحمد سه الأمين، الموقعwww.alaraby.co.uk

نجله الحاج منصور سه يرسم لنا بريشة قلمه نبذة من النشاطات والحياة اليومية للشيخ الحاج مالك سه بقوله:

فيوما تراه لتدريسه ويوما لوعظ وهادي الأمم

ووقتا لتأليف مدح النبي ووقتا لمن شكره قد حتم

تلك هي المدرسة الفريدة التي أراد بها مؤسسها أن تكون ذات طابع فريد متميز عن غيرها وقد طبقت شهرتها الآفاق، ودارت أخبارها بين العامة والخاصة حتى كانت مضرب المثل في الأخلاق الكريمة السامية، والمثل العالية الفاضلة[1].فقال فيها ابنه العلامة الشيخ محمد المنصور ومشيرا إلى جدول أعمال الشيخ اليومية في الزاوية:

للخلق في نفسه أطوار منفعة لله بالله ذا التقسم قاساه

طورا لتدريسه الفنون مع حكم يحار ذو الفهم فيها نعم فتواه

وتارة في أحاديث النبي وطو رافي التآليفلا تطمع قصاراه [2]

أسلوب الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه مع الاستعمار:

وقد فضل الشيخ الحاج مالك سه منهج المصالحة والمسالمةمع الاستعمار وهو أسلوب (لا حرب ولا سلم). أن الاستعمار أحكم قبضه على مجموعة الدول الغربية الإفريقية، والدليل أن الشيخ الحاج لما بدأ دعوته الإصلاحية القائمة على التعليم وقد وجد أن البلاد كلها محتلة[3].

لأنالاستعمار أسقط جميع رموز المقاومة من الرجال والزعماء، ولكسب الوقت والزمن وملاحقة العدو الغازي يرى الشيخ الحاج مالك سه بأن من العبث وضياع الزمن والجهد مواجهة الاستعمار بالسلاح،وهذا الخيار السلمي قد مكنه وأكسبه كثيرا من وإنجازات مكاسب، فماكان يقدر هوأن يحرزه لو تبنى أسلوب المواجهة والعنف والجهاد والقتال بالسيف وتجنيد الجنود، وهذا في رأي الباحث، وإلى ذلك يشير الدكتورعثمان جا في بحثه قائلا:(لقد نجح الشيخ الحاج مالك سي في أسلوبه السلمي الذي سلكه مع المحتل الفرنسي فرفض فكرة الجهاد ضد أي أحد.لايرى في ذلك

---

[1]– الحاج محمد المنصور سه، المرجع السابق

[2]– الحاج محمد المنصور سه، المرجع نفسه

[3]–محمد ولد محم، العلاقات السنغالية الموريتانية، عبر الشيخ الحاج مالك سه (مدرستيواون) بالعلويين بحث مقدم لنيل شهادة الدراسات المعمقة، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب، دكار السنة 2003/2002م، ص13

مصلحة للإسلام ولاللمسلمين)[1]. وهذا النجاح الذي أحرزه الشيخ هي ثمرة ووليد مجهودات وتضحيات بذلها على مدى من الزمن طويل، والهدف منه إنقاذ شعبه من ويلات الاستعمار، وتحريرهم من التبعية العمياء، والإقبال إلى ما هو أهم، ولذلك يقول ابنه وخليفته الأول الشيخ أبوبكر سه رضي الله عنه: "العاقل من عرف زمانه واشتغل بنفسه".

ويرى الشيخ على يقين منه بأن أمثل طريق وأنجع وسيلة للوصول على ذلك هي التعليم والتربية الإسلامية، و أن المرء لاينال سعادة الدارين إلا بالعلم والدين، فالدين يحرره من ربقة العبودية والركون لسوى الخالق الأحد، والعلم يرشده إلى التمييز والمعرفة بين الصالح والفاسد، والقيام بمسؤولية ربانية والدور الجوهري الذي ينبغي أن يشتغل الإنسان ويعمرفيه الوقتاستعمار في الأرض والقيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض، ولتحقيق هذا الهدف النبيل أعد الشيخ جيلا مثاليا وقدوة ونخبة صفوة مسلحة ومزودا بالعلم الصحيح للشريعة الإسلامية والسنة الشريفة." أسّس الشيخ زاويته أو مدرسته على مبد إ أنه إذا انتهى من تعليم أحد -من - أتباعه يأمره بالعودة إلى أهله أو إلى محلّ يفتقر سكانه إلى من يعلمهم القرآن الكريم والثقافة الإسلامية، من تعليم الناس ما حصل عليه من العلم"[2].

سواء في القرى والأمصار والمدن الحضرية لمواجهة هذا الواقع المتردي الذي جرّه المستعمر الغاشم بفرض ثقافته مستعملا وسيلة التعليم من جانب و وسيلة الترغيب بمنح سكان بعض المدن حق التمتع بالجنسية الفرنسية، هذا بقدركما استعمل أسلوب الترهيب بفرض قيود مشددة أمام معلمي القرآن الكريم من ناحية أخرى، ففي السنغال فقد أحكم الاستعمار سيطرته على المدن الحضرية الأساسية، وأقام مدارسه، ووضع نظام تعليمه وقرّر مناهجه الدراسية، وأثّرفي البنية الاجتماعية حيث بنى مدرسة في تيليميديبموريتانيا، وأخرى بمدينة سنلوى في السنغال لتعليم وتكوين أبناء الطبقة الأرستقراطية من أجل كسب موالاتهم وتعاطفهم معه، واستخدامهم لتنفيذ مشروعه

---

[1]– عثمانجا، المرجع نفسه، ص178

[2]–شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانيينالتواونيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية

التوسعي[1]، ولكن الشيخ يبطل ويدرأ الخطة التي دبرها الاستعمار بهمة عالية وعزيمة سباقة بتنمية الوعي الديني والوطني لأتباعه،مناضلا باللسان والقلم، حتى تفتقت وانشرحت له قلوب طالما كانت مسدودة، رافضا أسلوب المواجهة العسكرية، كالجهاد لترحيل الاستعمار، لقد قرر واختار الشيخ هذ الرأي، واتخذ هذا الموقف في ذلك العصرلمعرفته أحوال الناس ومتطلبات الوقت[2]. ولاغرو في ذلك، فهو شيخ صوفي، يعرف كيف يسير ويدير أوقاته ويوظف طاقاته، ويقال بالمثل الصوفي بأن "الصوفي ابن وقته". ها هو نجله، خليفته الأول، الشيخ أبوبكرسه المشهور باسم (الشيخ الخليفة) الذي قد نظم قصيدة طويلة لتقريظ مؤلف والده الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنهم، القيم الجم الفوائد (خلاص الذهب في سيرة خير العرب "منوها على غزارة العلم والثقافة الموسوعية ويصف الشيخ الحاج مالك سه -رضي الله عنهما،- بأنه بحر خضم، ولايطاول مداه ولايجارى في الفنون والعلوم النقلية والعقلية الشرعية منها واللغوية. والقصيدة رائية، من بحر الطويل، ونورد منها هذا البيت الآتيعلما بأن قدرا كبيرا منهاسيذكر محلها خلال هذه الدراسة، فقال:

وكل فن لسان الحال قال له ألق العصا تلق من تيسير ما عسرا[3]

ومن ناحية ثانية،فقد استعرض نجله وخليفته الثاني الحاج منصور سي رضي الله عنه، الشاعر فحل ويصوغ لنا شعرا يدون ويصف فيها أخلاق والده الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنهم الفاضلة الرفيعة،وشيمه السامية ونفسه الأبية، وقيامه بمجهودات فكرية مضنية، أبلاها بلاء حسنا، ويذكر الخصائص الروحية التي اتسم بها الشيخ،والرصيد العلمي الزاخر الذي قد تبحر به، ويمدحه مقررا بأن الله عز وجلّ قد وفق الشيخ لحاج مالك سه، هيأ له شروط النصر لإلحاق هزيمة على جيوش البدع، والدحض، والزعزعة والدكّ على أركانها منهارة،وحطم أعلامها منتكسة، حيث عدد مجموعة هذه الصفات الحميدة،من خلال قصيدة أخرى وصف الشيخ الحاج محمد المنصور سه نفسه،مشيرا إلى أن الشيخ الحاج مالك سه والده وشيخه المربي كان طبيبا عالما،خبيرا،ذا موهبة في معرفة علل النفوس وأمراضها، وبالتالي فهو قادر على

---

[1]– الدكتور عمران كبا، الشعر العربي في الغرب الإفريقي، خلال القرن العشرين الميلادي، إيسيسكو،1432ه/2011م، ص33

[2]– عثمان جا، المرجع السابق، ص176

[3]– أبوبكرسه، ديوان، مخطوط، في زاوية مدينة تيواون، السنغال.

إزاحتها وعلاجها ومداوتها، وأنه يهدي النفوس التائهة إلى برّ الأمان،ويروي الأرواح المتعطشة بماء الوصال والوقوف إلى عتبةالحضرة الربانيةلمعرفة الله تعالى ومحبته، وأن الشيخ كان يقوم خير قيام على ساق الجدّ لهداية ورياضة النفوس البائسة الضائعة الضالة، قابضابزمام سيرها،حتى تبلغ سفينتها راسية على شاطئ الأمن والسلام والنجاة من الردى، بقوله:

رضت النفوس لدين الله تربية إبليس ما ابتسمت منه

وقدامتدحه خليفته الأول – الذي مر ذكره سلفا – الشيخ أبوبكر سي رضي الله عنه في مواطن عديدة، مقررا بأن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، لاغنى عنه من وجوده في هذه البلاد وفي هذا الزمان، بقصيدة نونية من بحر الكامل:

لولاوجودك في الزمان أماتنا ظمأ الوصال وكثرة الجولان[1]

يقول الدكتور عامر صمب:" الحاج مالك سي أنار الله لنا بيننا بنور شمسه الذي نشر التجانية في السنغال، وبنى زاويته في تيواون.....هي الزاوية الكبرى لمن تبع طريقة الحاج مالك سي من التجانيين "[2]. ويفهم من سياق هذا النص بأن الشيخ الحاج مالك أحي معالم الإسلام في هذا القطرالغربي الإفريقي عموما وربوع السنغال خصوصا، هذا في الزمن الذي قد تعرض فيها الإسلام للطمس، والهجمة والإساءة. وقدجاء الشيخ الحاج مالك سه معلما، ومربيا داعيا، ومصلحا وأعاد للإسلام حيويته وللطريقة التجانية نشاطه. وقد وضّح الدكتور عثمان جابأن كثيرا من الأوساط العلمية تقوم بدراسة أبحاث عديدة وتعقد ندوات ولقاءات علمية لإبراز أهمية ومكانة ودور هذه الزاوية التجانية بقوله:" وليس اهتمام الدارسين والباحثين في الثقافة العربية الإسلامية وفي الطرق الصوفية بالسنغال،بهذه الزاوية قديماوحديثا سوى مظهرمن مظاهر نفوذها وحضورها في إسلام هذاالبلدالإفريقي وفي ثقافته الإسلامية الروحية،فالدراسات المنجزة حولهابالفرنسية والعربية قديما وحديثا كثيرة تخيل للمرء إلى الأسباب أن التجانية كلها ملك لتيواون، وإن وجدت مراكز تجانية أخرى في البلاد."[3] وأثبتأيضا عامر صمبهذه الحقيقة الواقعة في كتابه:" بأن مدينة تيواون من أهم مراكز الثقافة التي

---

[1]– الشيخ أبوبكر سه، المرجع السابق.

[2]– عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص35

[3]–عثمان جا، المرجع نفسه، ص171

قد سار بصيتها الركبان إلى ما جاوز حدود السنغال من البلدان وقد علا بها الحاج ملك سي إلى مادون الثرياقبل مائة عام تقريبا، وهي ما اقترن الإسلام والأدب بالسنغال.....الذي نشر الطريقة التجانية في السنغال، في الحقيقة، إذلم يبق أثر ذوبال عن الشيوخ المجاهدين مثل الحاج عمر وأحمد شيخو ومابه جخ من جهة النفوذ الصوفي"[1]

يشيرعامرصمب في رسالته إلى ما حققه الحاج مالك سي من جلائل الأعمال وفي مجالات عديدة من نشر الإسلام، ورفع شأن الطريقة التجانية، وبالتالي إعادة روح الحيوية والنشاط للتصوف، وفي مجال العلم و الأدب الإبداع في فن الشعر، وفي ميدان الاجتماع سعى جاهدا لتغيير الواقع السيئ والرديء الذي قد جثم على صدر المجتمع،وأنهك قواه،وعلى الرغم من تعدد هذه الجبهات وحدة الأزمات، وقلة العد والعتاد لم يمل الشيخ لم ييأس ولم يتوان،بل أصر وبقي صامدا حاملا ورافعا للإسلام ولثقافته العربية الرايةعالية خفاقة،ومتوكلا على الله واثقا بنفسه على أنه سيكون حليف النصر،فواصل السير على الدرب لتحقيق مهمته.

ولم يتراجع قيد أنملة عن موقفه الشريف، ولم يتوان بسبب تراكم العقبات التي كانت تعترض سبيله، فقد توكل على الله تعالى، متوشحابرداء من الصبر والمثابرة، راضيا بقضاء الله وقدره، وملتمسا رحمته ولطفه الخفي، فقال متوسلا إلى الله تعالى:

أشكو إلى الله حاجا ليس سواك ياربنا يا الله

ورضني بالقضا رب مصبرني على بلائك يا رحمان

وما السفينة ترجى غير عظمى العميمة كلّ الخلق يا

وهكذاكان يسعى الشيخ للوصولإلى الغايةالتي ترنو وإليه عينه ويصبو إليه، وهو تجديد أمر الدين الإسلامي، والإصلاح، وإعلاء الطريقة التجانيةباعتبارها ونظيراتها من الطرق الصوفية كلها قلاعا وحصون تمنع الإسلام وتحميه من الهجمات والمساس لمحارمه. فقال رضي الله موضحا وحدة الهدف لجميع الطرق:

والطرق كلها إلى الرحمان مسلكة موصلة ياجان[2]

---

[1]– عامر صمب، المرجع السابق، ج1، ص35

[2]– الشيخ الحاج مالك سه، ديوان، بزاويته، تواون، السنغال

يقول عثمان جا:"ولقداستطاع الشيخ الحاج مالك سه أن ينفخ في التجانية روحاجديدة ويمنحها دينامكية حية بعدما عرفت نوعا من الركود والبرودة نتيجة موت زعيمها الكبير الحاج عمرا لفوتي، وبعض خلفائه الذي حملوا السبحة التجانية لنشرهالأنهم اصطدموا بالقوة الاستعمارية المتحالفة مع الوثنية...."[1]

ما هي عندالحرية عند الشيخ الحاج مالك سه؟

فالشيخ الحاج مالك سي هوعاش ناشرا للطريقة التجانية في السنغال وفي غرب إفريقيا،وقد اعتنى بنشاطه التربوي على إعداد الإنسان حراسويا مستقيما، باعتباره أن الإنسان هو العنصري الأساسي و الجوهري الذي يبني ويصنع الحضارة،ويكون قادرا بأداء دور المستخلف في الأرض والمستعمر فيها، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق العلم، واتباع الدين الحنيف فقال الشيخ الحاج مالك رضي الله ملتمسا من الله جل وعلا أن يجعله عبدا حرا في كافة النواحي، بحيثلايتعلق قلبه في أية حالة من الحالتين رغبة ورهبةولاينساقإلى أي مخلوق، بل ينقادللهوحده فقال:

ألاهمتي فاجعل إلهي عليه لأن صرت حرّ خالصا كلّ[2]وجهتي

لقد مر الشيخ بمراحل عديدة لتنفيذ مشروعه الإصلاحي، ولتحقيق طموحاتهالمرتكزة على التعليم والتربية. وأهم الأطوار من الزمن التي مرّ بها الشيخ هي مرحلة أومدرسةقرية انجاردNdiard ويلاحظ بأن جل الذين لازموا الشيخ فيها كانوا علماء متبحرين في فنون كثيرة، وقبل لقائهم بالشيخ كانوا أرباب مناصب ومسؤوليات دينية عالية، فمنهم مثلا من همحملة القرآن الكريم، أئمة أو قضاة وإلى غير ذلك. فالنمط التدريسي الذي كان يزاوله الشيخ في هذه المدرسة الأنجاردية كانت بمثابة دروسأكاديمية، بحكم طبيعة الناس الموجودين فيها، أصحاب مستوى رفيع، وذوي مستويات وكفاءات عالية[3].

ويرجع سبب تقاطر هذهالوفودإلى الشيخ في انجاردلما تلقونه إثر عودته من الحجّ، بأنه قام مدرسة شعبية للتعليم والتربية، فتبادروا إلى قرية انجاردللاستزادةوالاستفادة من زلال مائه المعين الثرّ.وأما المرحلة الثانية ومن ميزاتها وسماتها أن الجماعة من

---

[1]– عثمان جا، المرجع نفسه، ص171

[2]– الحاج مالك سه، المرجع نفسه.

[3]–عثمان جا، المرجع السابق، ص183

العلماء والطلبة الذين صحبوا الشيخ في زاويته (تواون) يختلفون عن أولئكالسابقين في قريةانجارد، والفارق بينهما أن الدراسة التواونية دون الدراسة الأنجاردية في المستوى والدرجة، وبالتالي فإن التعليم في زاوية تيواون كان مفتوحا أمامالجميع،بغض النظر عن المراتب العلمية والمستويات الثقافية، ومن هنا يظهر أن الدرجات فيها متفاوتة، ولهذا كانت الدراسة في مرحلة تيواونتهتم وتراعي الفوارق الفردية[1]. وقد صنف الشيخ الدراسة جملة طلابه في زاوية تيواون، -لدىنزوله فيها-إلى فئات وقسم أطوار التعليم إلى مراحل عديدة حيثينجم عن ذلك وجود عدد من الحلقات والمجالس، بعضها يستقبل فيها التلاميذ المبتدؤون لتحفيظ القرآن الكريم، والبعض الآخريخص لذوي المستويات المتوسطة، والفئة الثالثة للمتفوقين، وكان الشيخ يدرس كل تلميذ على حدة، ثمّ يسند تعليم ذوي المستوى الأدنى إلى من هم فوقهم من في الزاوية[2].

قائمة المصادر والمراجع

العربية:

1 – الدكتور عثمان جاه، التجانية في الأدب السنغالي العربي، ط1، مطبعة أرمتان،2017م

2- بول مارتيPaulMarty، بحث عن الإسلام في السنغال

3-محمد السعيدبا، نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب، ج1، طبعة ثالثة، مركز النجاشي العلمي، بفاس قناس، السنغال 2012م

4 – شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانيين التيواونيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية.

5 -مقالة حول مدينة تيواون، السنغال، الموقع www.aljazeera.net

6- مقابلة صحفية، سيدي أحمد سه الأمين، الموقع www.alaraby.co.uk

7 -الحاج محمد المنصورسه، ديوان مخطط

8 -محمد ولد محم، العلاقات السنغالية الموريتانية، عبر الشيخ الحاج مالك سه (مدرسة تيواون) بالعلويين، بحث مقدم لنيل شهادة الدراسات المعمقة، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب، دكار، السنة 2003/2002م

[1]–الطلبة التجانييناالتواونيين، المرجع السابق، ص37.

[2]– الطلبة التجانيين التواونيين، المرجع نفسه، ص37

9 –الدكتور عمران كبا، الشعر العربي في الغرب الإفريقي، خلال القرن العشرين الميلادي، إيسيسكو،1432ه/2011م.
10 – الشيخ أبوبكر الخليفة، ديوان مخطوط بزاوية تيواون، السنغال
11 – الشيخ الحاج منصور سه، الأول، ديوان مخطوط، بزاوية تيواون، السنغال
12–الدكتورعامرصمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1979م
13 –الشيخ الحاج مالك سه، ديوان مطبوع، بزاويته، تواوون، السنغال.

المراجع الأجنبية:

14/ Atoumane Ndiaye Doumbia, (Tivaouane en image: L'histoire de la ville dépuis1886), Maguilien, 2011.
15/ M.CHAILLEY ET Autres, Notes et études sur l'islam en Afrique noire, Université de Paris